الرداء الأخير

لم يكن يخطر على باله قط أنه سيلتقي بها .. عندما جلس والأستاذ على شاكر صاحب جريدة (المساء) فى تراس شبرد يرشف قدحا من القهوة فاذا به يلمحها مقبلة تصعد درجات السلم فى خفة .

ولقد تملكه من رؤيتها شعور بالدهشة والإعجاب فقد كانت فى حقيقتها أكثر روعة مما تبدو على الشاشة أو على المسرح .. وشعر بالخجل والخشية من ذلك النقد الذى سلخها به منذ بضعة أيام .. وان كان قد أحس ببعض الطمأنينة لأنه توقع أن تمر به مر الكرام .. فلا شك فى أنها لاتعرف عنه سوى اسمه .

وتشاغل بتصفح جريدة أمامه .. ولكنه لم يشعر الا وصاحبه قد نهض محييا مرحبا .. ورفع بصره فاذا بها تقف وقد علت وجهها ابتسامة ساحرة .

كانت المرأة الأولى التى التقيا فيها وجها لوجه .. فما رآها من قبل الا على الشاشة البيضاء أو على خشبة المسرح ومع ذلك كتب عنها

كما كتب عن سواها الشيء الكثير .. وكال لها من لاذع النقد ومرير الكلام ما هوى بها الى أسفل سافلين ، ولقد فاجأه اللقاء فما كان به شديد لهفة عليه .. فقد كان أكثر ما يخشاه هو لقاء .

فى ليلة عجيبة .. اقتطعها الله من ليالى الجنة .. وأسقطها لأهل لارض فاندست فى لياليهم .. ليلة ظلمها من سماها ليلة .. فهى ليست من الليل فى شىء .. ففى سحرها نور أبهر البصر من نور النهار .. ليلة .. لاينام فيها الا الحمقى والمجانين ..

فى هذه الليلة جلست الشاعرة وحولها جمع من الخلان ، أسكرهم سحر الليل والخمر والهوى .. فانطلقوا فى الرقص والضحك .. ولم يكن بينهم انسان الا غمر النعيم ، وملأته النشوة .. وبدأ الغناء فصمت القوم وأنصتوا .. وراحوا من الطرب فى شبه غيبوبة .. وانتهى الغناء فضج القوم بالتصفيق والهتاف .

ووقف بين القوم فجأة فتى أسمر الوجه ، دقيق التقاطع ، حلو الملامح .. وقد أمسك بقيثاره فى يده .. وأشار باليد الأخرى للقوم أن ينصتوا .. وأنكر القوم الفتى .. فقد كان غريبا مغمورا .. لم يسمع به من قبل فى عالم الغناء .. ولكن الفتى يأبه ، وأصر على أن يغنى .. وبدأ غناءه بالفعل .. فاذا بالقوم تتملكهم هزّة ، وينتفضون ، كما انتفض العصفور بلله القطر .

هذا الفتى لايمكن أن يكون آدميا .. اذا ليس بانسان قط من كان مثله .. وان كان انسانا .. فلاشك أنه ساحر من السحرة .. والا لما ترك القوم هكذا جاحظى الأعين فاغرى الأفواه ، لا حراك بهم ، كأنهم أجساد بلا أرواح أو كأنهم أهل الكهف !

وانتهى من الغناء ، فردّت الروح الى القوم ، وجاشت فيهم الحياة .. فانطلقت حناجرهم بصيحات الإعجاب ، وتكاكأوا على الفتى يوسعونه تقديرا واعجابا .

وهدأ القوم وسكتت ثائرتهم ، فصاح أحدهم يطالب الفتى أن يغنيهم بعضا من شعر الشاعرة .. وظهرت الحيرة على الفتى .. وبدا عليه أنه لم يسمع لا عن الشاعرة ولا عن شعر الشاعرة .

وأصر القوم على طلبهم ، فلقنوا الفتى من نظم الشاعرة أبياتا تسيل رقة وعذوبة .. وسرعان ما ارتجل الفتى لها لحنا وبدأ فى غنائه .

وخيل الى الشاعرة أنها لاتبصر من حولها .. وأحست لحن الفتى قد حملها بعيدا الى عالم مليء بالفتنة والسحر .. عالم لايحوى من الكائنات سواهما .. وخيل اليها أنها تسمع همسات تقول :

(هنا لاتقع العين على غيرى ولاغيرك) .

أى عذوبة أضفاها اللحن على الشعر ؟ وأى جمال ، وورونق كساه اياه ؟ .. أهذا هو حقا ما قالته هى ؟ لاتظن .. فو الله ما أصاب الشعر من نفسها عندما قالته مثقال ذرة مما أصابه عندما غناه الفتى .. لقد كانت التمثال .. وكان كنافخ الروح فيه .

وانتهى الفتى من الغناء .. وكم ودت لو لم يكن لغنائه من نهاية .. بل يستمر يغنى ويغنى فلا ينتهى الا وقد انتهى العمر ونضب معين الحياة .

ومنذ تلك الليلة ، والشاعرة قد غمرتها نشوة لاتكاد تفيق منها .. لقد وقعت الشاعرة فيما أوقعت الناس فيه .. وذاقت الكأس التى كانت تكتفى بحملها الى العشاق .. فأسكرتها خمرها .

وأحست الشاعرة لذة الهوى ، وأدركت أن ما نظمته فى الحب كان بالنسبة لحقيقته قشورا زائفة ، واندفع الفتى الموسيقى الناشىء فى حبها حبا جنونيا .

ورحل العاشقان الى كوخ الفتى على شاطىء البحر .. ليمرحا فيه فترة من الوقت بعد أن اتفقا على الزواج .

ووقفت الشاعرة تطل من نافذة الكوخ وقد امتد البحر أمامها فى رقة عجيبة ، وصافح نسيمه الرطب وجهها فأحست أن بالحياة حقائق قد تفوق فى متعتها أجمل الأحلام .. وعجبت لنفسها كيف استطاعت أن تحيا فيما مضى دون حب .. وكيف كانت تحتمل تلك الحياة الجوفاء الخالية !

وأحست الفتاة بوقع أقدام تدب خلفها متسللة .. وكانت أذناها لاتخطئان قط صوت أقدام الفتى .. ولكنها لم تتحرك كأنها ما شعرت بقدومه .. لقد كانت تعرف ماذا سيفعل ، وكانت تتمنى أن يفعله فى كل آونة .. كان كثيرا ما يتسلل اليها .. فلا تشعر الا وشفتاه قد مستا عنقها فى لهفة وشغف فتسرى فى جسدها رعدة لذيذة ، وتتسلل الشفتان الملتهبتان من العنق الى الذقن الى الفم الى العينين .. فلا تتركانها الا ووجهها قد ألهبته القبل ، وكانت تحس به فى كل مرة عندما يتسلل خلفها ولكنها كانت دائما تدعى أنها لاتشعر !

وكان كوخ الفتى – على صغره وبساطته – جميلا أنيقا .. وكان المكان خاليا ألا من بضعة أكواخ صغيرة متشابهة .. وكان الفتى يعيش مع أمه العجوز الطيبة التى رحبت بقدوم الفتاة الشاعرة أيما ترحيب .. فقد كانت الفتاة رقيقة لطيفة المعشر .. حلوة الحديث .. فسرعان ما جذبت اليها قلب العجوز .

وفى ذات يوم نزلت الى حديقة الكوخ فاذا بفتاة شقراء قد جلست فى ركن الحديقة .. وعندما اقتربت منها الشاعرة وقفت الفتاة في احترام شديد وقد بدا عليها الخجل ثم قالت بصوت خفيض :

– لقد كنت انتظر خروجك فى لهفة .. ألست سيدتى الشاعرة ؟

وفوجئت الشاعرة وبدا عليها الارتباك فقد انغمرت فى حياة الهوى الجديدة ونسيت كل ما عداها .. حتى أنها شاعرة .. فقد خلا رأسها من كل شيء الا الحب .. وصمتت لحظة ثم أجابت بهدوء :

– نعم .. انى هى .

وملأ السرور نفس الفتاة الصغيرة الشقراء، وافتر ثغرها عن ابتسامة ساحرة جذابة ، وقالت فى فرح شديد :

– لقد سمعت اسمك يتردد على فم الخادمة ، ولم يخطر لى على بال أنك الشاعرة التى أحفظ لها كل بيت قالته .. بل كل كلمة .. بل كل حرف ، ولم تكن لى أمنية الا لقاءك .. أو حتى رؤيتك عن بعد .. فتخيلى ياسيدتى أننى أسمع أنك تقطنين بجوارنا .. أى صدفة عجيبة تلك التى ألقت بى الى هذه الناحية ؟ ! انا لم نقطن هنا الا منذ يومين ، وكنت لا أرغب فى السكنى فى هذا المكان ، ولكننا لم نجد سواه .. فنزلنا فيه مكرهين .. فتصوّرى ياسيدتى أننى أسمع بعد ذلك أنك تنزلين بجوارنا .. أى فرصة سعيدة ..

وكان الحديث يتدفق من فم الفتاة فلم يسع الشاعرة الا أن تستمع . ولو قيل لها هذا الكلام فى غير ذلك الوقت لما أحست بأن هناك من يعادلها غبطة وسعادة .. اذ لم يكن يسرها شيء قدر أن تسمع

ثناء المعجبين بشعرها .. ولكنها الآن .. لم تجد معنى لكلمات الفتاة فلم تسرّها .. ولم تحرك مشاعرها .. لقد كانت زاهدة فى كل شىء عدا الحب .. لم تكن ترغب فى رؤية الفتاة أو غيرها .. لأنها كانت تود ألا يشغلها شىء عن فتاها المحبوب .

ولم تدر الشاعرة بم تجيب الفتاة وبدت عليها الحيرة والضيق .. ولكن الفتاة لم تترك لها فرصة للحيرة فقد عاودت الحديث قائلة :

– الواقع ياسيدتى أنه لاشىء يبعث على الغبطة قدر أن يقابل المرء عظماء الناس .. ويجلس اليهم ويحدثهم .

وقطعت الفتاة حديثها ، فقد بدا الفتى فى باب الكوخ ، بقوامه الفارع ، وملامحه الجذّابة .. وأبصرت الشاعرة عينى الفتاة تبرقان بالإعجاب ، فأحست بشعور قلق مبهم ، وسألتها الفتاة بسذاجة :

– ترى من يكون ؟

– أنه صاحب الكوخ ، وزوجى فى المستقبل .

واقترب الفتى .. فقدمت اليه الفتاة قائلة :

– جارتكم الجديدة .

وسلم عليها الفتى باسما مرحبا . وقالت الفتاة :

– انه مما يشرف الناحية ياسيدى أن تنزل بها الشاعرة ، وسيسجل لها التاريخ ذلك .

وعلا صوت الفتى مقهقها وأجاب :

– لم أكن أظن أنك على هذا القدر من الشهرة .. أو ترين أن أهل هذه الناحية مصابون بداء الشعر ؟

وضاقت الشاعرة ذرعا بمديح الفتاة .. وساءلت نفسها اذا كانت الفتاة تنوى أن تضيع عليها يومها بالاستمرار فى كيل ألفاظ المديح والإعجاب .. وأحست بشدة بغضها للشعر .. والشعراء .. ووجدت نفسها تقول للفتاة معتذرة :

– كنا ننوى التنزه على الشاطىء .. فلعل مغادرتنا لك لاتضايقك .

وحاولت الشاعرة أن تكون رقيقة فى اعتذارها .. ولكن جملتها بدت جافة .. حتى دهش الفتى لها بعض الدهشة وبدا على وجه الفتاة احمرار خجل طفيف .. وأجابت متلعثمة :

– بالعكس يا سيدتى .. انا التى أخشى أن أكون قد ضايقتك بتطفلى .. ولكن عذرى فى ذلك هو شدة لهفتى الى رؤيتك .

وشدّت الفتاة على يديهما ، ورغبت الشاعرة فى أن تعتذر عن خشونتها فقالت للفتاة :

– أرجو ألا تكفى عن زيارتنا بين آن وآخر .. فان زيارتك تسعدنا .

وبرقت أسارير الفتاة وغادرتهما مغتبطة .

وانطلق العاشقان الى البحر وبنفس الشاعرة بعض القلق والخوف والحقد ، والغير .. ولكن عند عودتهما كان كل ما بنفسها قد ذهب وحل محله الثقة والاطمئنان .

وفى المساء جلس العاشقان ينعمان بأحلام الحب وأمانيه العذبة . الى أن قال الفتى :

– لقد شغلنا الحب عن الحديث عن شعرك .. لقد أدهشتني الفتاة بما قالت ، فاني لم أسمع منك غير تلك الأبيات التي غنيتها في أول لقاء .

– لاتصدق حديثها .. فأغلب ظني أنها طفلة حمقاء .. ودعنا من حديث الشعر .. فلا أريد أن يشغلنا الآن شيء عن حديث الحب .

وفي اليوم التالي عادت الفتاة في الصباح المبكر وهي تحمل معها رزمة من الورق ، واستقبلها الفتى مرحبا ، فسألته عن الشاعرة .. وأخبرته أنها تود لو تستطيع الفوز بتوقيعها على مجموعة الشعر التي سجلتها في هذه الأوراق .. وبعد هنيهة قدمت الشاعرة فما أن رأت الفتاة حتى عاودها القلق .. وسألتها الفتاة في رفق وأدب أن تسمح لها بامضائها .

ودهش الفتى عندما وقع بصره على مجموعة الأوراق المليئة بالشعر .. وأخذ يقلب صفحاتها بين يديه وسأل الشاعرة :

– كل هذا من نظمك أنت ؟

– نعم .

وسألته الفتاة في دهشة :

– ألم تقرأ لها شيئا ؟ انى لم أشغف بشيء في الحياة قدر شغفي بشعرها .

وأحست الشاعرة أنها لن تستطيع أن تحتمل المزيد من مدح الفتاة .. وكان الجو يبشر بيوم شديد القيظ فاقترحت الشاعرة أن يذهبا للسباحة في البحر .. ولكن الفتاة صاحت دهشة متعجبة :

– أنت تسبحين ؟

ونظرت اليها الشاعرة نظرتها الى بلهاء أو مجنونة وسألتها في هدوء :

– وأى غرابة فى ذلك ؟

– شاعرة .. تسبح ! لم أكن أظن أن العظماء يستطيعون السباحة ، اذ يخيل الىّ أنه ليس لديهم وقت لذلك .. وانهم لايغادرون صومعاتهم التى يتلقون فيها الوحى .

ولاحظ الفتى تبرّم الشاعرة بالفتاة وأراد أن ينقذ الموقف فعرض أن يذهبوا جميعا للسباحة . فبدا على الفتاة الفرح لهذا الاقتراح وانطلقت معهما الى البحر .

وكانت الفتاة ماهرة في السباحة فاندفعت في البحر .. واندفع معها الفتى .. وحاولت الشاعرة أن تندفع .. ولكنها شعرت بالعجز والوهن .. وأحست أنها – كما قالت الفتاة – لاتعدو أن تكون شاعرة لا قبل لها بالسباحة .. وعادت الشاعرة الى الشاطىء .. وغاب الفتى والفتاة عن بصرها في جوف الماء .. ولم تستطع أن تمنع لوعة تسرّبت الى نفسها .. ووجدت قدماها تسوقانها الى الكوخ فعادت من حيث أتت .

وجلست فى حجرتها حزينة واجمة .. لقد أحست بخوف من الفتاة منذ أن وقع عليها بصرها .. لم تدر ما سبب الخوف .

ولكنها لم تستطع أن تمنعه وأحست بأنها مجهدة منهكة ، وغلبها الإعياء فراحت فى اغفاءة .

وعندما أفاقت كان الفتى والفتاة قد عادا .. وسمعت صوت الفتاة تتحدث .. فأنصتت قليلا .. فاذا بالفتاة تقرأ للفتى أشعارها .

وقامت الشاعرة وأصلحت نفسها فى المرآة .. وكانت تحس شعور المتأهب لقتال .. القادم على معركة .

وعندما أبصر الفتى الشاعرة نظر اليها نظرة بها بعض الغرابة وقال :

– لقد حدثتنى عنك بما كنت أجهل .. وقرأت لى الكثير من شعرك .

ورغبت الشاعرة فى أن تنحو بالكلام ناحية أخرى فقالت :

– لقد أصابنى الإجهاد فى البحر .. لأنى فى حاجة الى كثرة المران .

وردّت الفتاة فى رفق ولين :

– لا أظن العظماء فى حاجة الى أن يجيدوا السباحة .

فهتفت الشاعرة فى خشونة :

– لا أظن هناك علاقة بين العظمة والسباحة .. ثم شيئا آخر .. أرجوك أن تكفى عن الزج بى فى معشر العظماء فما كنت منهم فى يوم من الأيام .

وانصرفت الفتاة بعد قليل ، وجلست الشاعرة والفتى وحيدين ، وأحست الأولى أن بالجو شيئا لم تعتده .. كأن ستارا قد قام بينهما وبين الفتى .

قالت : لم لاتتكلم .. انى أحس أن بنفسك شيئا .. قله أيا كان .. فهو خير من الصمت .

– انى أسائل نفسى .. ترى هل أصلح لك .. لقد أخفيت عنى حقيقتك .. كنت أعلم أنك تقولين الشعر .. ولكنى لم أعلم قط أن لك

دواوينا يحفظها الناس عن ظهر قلب .. ما ظننت أنك عظيمة بهذا القدر .. ولكنى أتساءل الآن .. أيصلح هذا الفتى الموسيقى الناشىء الذى لم يشق طريقه فى الحياة بعد لهذه الشاعرة العظيمة المتربعة على قمة المجد .. انى لا أكره شيئا فى الحياة قدر أن أكون الشريك الأضعف أو الأقل قدرا .. خير لنا أن ننتظر قليلا حتى أسير فى الطريق .. ثم أصبح ندًا لك .

وأحست الشاعرة أن قلبها يعصره الألم ، وأحست بالدموع تترقرق فى عينيها وقالت :

– اذا كان الشعر هو كل مافى الأمر .. فأعدك ألا أقول الشعر أبدا .

– هذا أسوأ ما فى الأمر .. فانى سأكون بذلك حجر عثرة فى سبيلك .

ومرّت الأيام بعد ذلك ثقيلة مملة .. لم يحدث بينهما شىء .. سوى أن تغير كل شىء ، ولم يفعل الفتى ما يحزنها ولكن لم يك يفعل كذلك أى شىء .. لقد خبا الشوق وذهبت اللهفة .. لقد انطفأت ثورة الحب التى كانت تتأجج بينهما .

وأخيرا أدركت الشاعرة أنه لم يعد هناك أمل فى نعيم أو رجاء فى هناء ، وأن الأيام تباعد بينهما رويدا رويدا .. فقررت الرحيل .. وذات صباح أنبأته بعزمها . وفهم الفتى فأطرق برأسه برهة . ولم يجب بشىء .

وأعدت الشاعرة حقائبها .

وهمت بمغادرة الدار .. فاذا بالفتاة تجلس فى الحديقة كما رأتها أول مرة ، ورفعت الفتاة رأسها وبدت عليها أمارات الدهشة والحزن وقالت :

– أبهذه السرعة ستغادريننا ؟ كم أود لو تبقين بيننا مدة أطول ، ولكن هكذا العظماء دائما سريعو الملل والسأم .

وحدجتها الشاعرة بنظرة فاحصة .. فبدا لها فى الفتاة شيء لم تتنبه اليه من قبل .. شيء جعل الدم يغلى فى عروقها .. لقد لمحت في عينى الفتاة نظرات تهكم وسخرية وانتصار .. وبدت لها الحقيقة لأول مرة جلية واضحة .. لقد كانت لعبة فى يد الفتاة التى ظنتها ساذجة حمقاء .. سلبتها فتاها بطريقة عجيبة لم تخطر لها على بال قط .. لقد أحبت الفتى ووجدت أن الشاعرة لاعيب فيها ولانقص تستطيع استغلاله لإبعاد الفتى عنها .. فلم تجد خيرا من الطريقة التى اتبعتها .. يا لها من شيطانة ماكرة .

صاحت الفتاة :

– أيتها الماكرة الخبيثة كفى هزلا وسخرية .. لقد حاولت أن تفهميه أن الفرق بيننا شاسع بعيد ، وأن أحدنا فى القمة والآخر فى الحضيض ، وغرست فى نفسه أن أحدنا لايصلح للآخر كى تأخذيه لنفسك .. لقد ظننتك حمقاء ، ولكن كنت أنا الحمقاء .

وبدا الفتى فى تلك اللحظة على الباب فصاحت الشاعرة باكية :

– انى أمقتكما !

وانطلقت تعدو الى الشاطيء هاربة من الكوخ .. وهناك استقرت لحظة على احدى صخور الشاطيء وقد تلاحقت أنفاسها ، وبعد برهة

قصيرة خيل اليها أنها تسمع وقع أقدام خلفها فأدركت أنه صدى الذكرى الماضية .. ولكنها أحست فجأة بشفتين على عنقها وانتقلت الشفتان الى العينين المبللتين بالدموع واستقرتا أخيرا على الشفتين ، ولو خيرت الشاعرة بين لذة هذه اللحظة ، وبين العمر كله ، لاختارت تلك اللحظة .. لقد فهم الفتى كل شيء ولم يعد يخشى شيئا ، وصمم أن يبلغ الى قمة المجد حتى يتساويا وطلب منها أن تنشده بعضا من شعرها .. فغناه لها .. وراحا فى نشوة من الهوى والشعر والغناء .

* * *